

الصدقة في القرآن



يقول ﷻ سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: (إِنَّ تَبْدُؤَ الصَّادِقَاتِ فَنَدِيمًا هِيَ وَإِنَّ تَخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهِ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (البقرة/ 271). وقال عز وجل أيضًا: (إِنَّ تَقْرَضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يُمْضَاهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (التغابن/ 17-18).

قد يكون هدف المسلم حين يقدم صدقةً أن يكون قدوةً في العطاء؛ فيقتدي الناس بفعله، فيصدقون، فيكون فعله مشجعاً لغيره في أداء الصدقة.

وقد يرغب المسلم أن يخفي صدقته فيقدمها دون صجة أو إعلان. ويبالغ في إخفاء فعله بقصد أن تبقى بينه وبين ربه لا يبتغي من بذلها إلا وجه ﷻ سبحانه وتعالى. وقد ذكر رسول ﷻ (ص) أمثال هؤلاء الناس في حديثه: "سبعة يُطلبهم ﷻ تعالى في طليعة يوم لا ظلَّ إلا ظله.. ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالهُ ما تُنفقُ يمينهُ" (1423 فتح الباري، ص292/3). قال تعالى: (وَإِنَّ تَخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهِ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (البقرة/ 271). فإطهار الصدقة بقصد تشجيع الناس أمرٌ مقبول، وإخفاؤها بقصد تحسين الصلة بـ ﷻ تعالى أمرٌ فيه خير؛ فالبذل بقصد الشهرة وقصد المراءات يُحبط العمل ويفقد الأجر.. ومن الذين ذكروهم ﷻ سبحانه وتعالى: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) (الكهف/ 103-104). (وقد مرَّ منَّا إلهي مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) (الفرقان/ 23).

والصدقة تُطفئُ غضب الربِّ. فإذا نزلت المسلم إلى ذنبٍ وشعرَ بأنه باعدَ بينه وبين ربه، فإنَّ الطهور الذي يردُّ إليه نقاءه و يردُّ إليه ضيائه و يلفِّه في ستر الغفران والرضا أن يأخذَ من مالٍ عزيزٍ عليه فيُنْفقه للفقراء والمساكين زلفى يتقرَّبُ بها إلى أرحم الراحمين.

ومن أروع الأمثلة في بيان ما للعتاء والجود من أثر في الغفران والنجاه ما أوحى إله به إلى نبيه يحيى ليعلمه أمته: "وأمركم بالصدقة. وإن مَثَلَ ذلك كمثل رجلٍ أسره العدوُّ القليل والكثير ليفكَّ نفسه منهم" (6233 صحيح ابن حبان، ص14/124).

إن الصدقات التي تبذلها على اختلاف أصنافها من زكاة أو هبة أو نفقة أو غير ذلك ذات أهمية كبرى في معاش الإنسان ومَعادته، وهي في أساسها تقوي صلة المسلم بالله سبحانه وتعالى، وتقيه مصارع السوء..

قال رسول الله (ص): "صنائع المعروف تقي مصارع السوء وإن صدقة السر تطفئ غضب الرب، وإن صلة الرحم تزيد في العمر، وتنفي الفقر".

قال (ص): "حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، وأعدوا للبلاء الدعاء". وما من شيء أشق على الشيطان وأبطل لكيدِه وأقتل لوساوسه من إخراج الصدقات؛ ولذلك يقذف الشيطان في النفوس الوهن حتى يثب عليها عن البذل. قال تعالى: (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّاهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّاهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة/ 268).

إن الإنسان عندما يقسم راتبه أو دخله على مصارفه ومطالبه يجعل جزءاً، قللاً أو كثيراً، للمستهلكات المعدومة. فهو يعد طعامه وشرابه ودواءه من هذا الحيِّز المفقود. أما ما ينفقه في سبيل الله فقط فهو الذي يبقى.

وقد يسبق الظنُّ إلى أن السخاء يُنقص الثروة ويقرِّب من الفقر ويسلبُ الرجلُ نعمة الطمانينة في ظلِّ ماله الممدود وخيره المشهود؛ وهذا الظن من وساوس الشيطان التي يُلقيها في نفوس البخلاء، والحق أن الكرم طريق السَّعة والسخاء سببُ النماء، وأن الذي يجعل يديه ممراً لعتاء الله يظلُّ مبسوطاً اليد بالنعمة مكفول اليوم والغد من رحمة الله وكرمه..

قال (ص): "ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه قال: ما نَقَصَ مالُ عبدٍ من صدقة، ولا طُلِمَ عبدٌ مظلمةً فصرَّ عليها إلا زادتهُ عزّاً، ولا فتحَ عبدٌ بابَ مسألةٍ إلا فتحَ الله عليه بابَ الفقر".

إن بذل القليل اليوم سيأتي بالكثير غداً. وقد جعل الله العطاء الجميل قرصاً حسناً لا يرد له صاحبه مثلاً أو مثلين بل يردُّه أضعافاً مضاعفة..

وإذا أغرى الله العبد بالإنفاق فقد كشف له أن نفقته على غيره وسيلةٌ جُلِّى ليتولى الله عليه الإغداق بالنعم من خزائنه التي يَلحِقُها نفاذ..

وفي الحديث عن الله تبارك وتعالى: "قال الله عز وجل: أنفقوا أنفقوا عليكم، وقال: يدُّ الله ملى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار. وقال: أرايتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغيض ما في يده وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع". قال تعالى: (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) (سبأ/ 39).